ظاهرة تعدد رؤوس المآذن بين مصر و تونس ودلالتها

بقلم أ.د.محمد محمد الكحلاوى

تقديم:

يهتم موضوع هذا البحث بكشف النقاب عن ظاهرة تعدد رؤوس المآذن في المأذنه الواحدة،وهو نموذج معماري فريد انفردت بعمارته كل من مصر وتونس دون غيرهما من بلدان العالم الاسلامي،من هنا فرضت الدراسة عدة تساؤلات أولها :ما هي الاسباب التي أوجدت تلك الظاهرة؟؟ ،وثانيها هل يوجد ربط بين هذه الظاهرة الممثلة في تعدد الرؤوس في المأّذنه الواحدة وبين تعدد المأذن في المسجد الواحد ،وبين اتجاهات عقائدية وتفسيرات مذهبية أو فكرية؟ وثالث هذه التساؤلات لماذا وجدت هذه الظاهرة في بعض مدن مصر وتونس على وجه الخصوص،ومن فيهما الأقدم؟ تلك التساؤلات وغيرها كانت من وراء إعداد هذه الدراسة ،وهي محاولة مني لكشف الغطاءعن ذلك النمط الفريد من المآذن ،وهي فكرة جديدة اردت من خلالها أن أضع رؤيتي أمام الباحثين والمهتمين بالدراسات الآثري’، من أجل محاولة فهم تلك الظاهرة والتي لا شك انها تمثل وتجسد وتفسر لدلالات فكرية جديدة.

الخلفية التاريخية لنماذج المآذن المتعددة الرؤوس في مصر:

عرفت بعض المدن المصرية أشكال مختلفه لمآذن متعددة الرؤوس،تنحصر نماذجها في ثلاثة أشكال رئيسية،أولها مأذنة شغلت قمتها برأسين منفصلتين،وثانيها مأذنة شغلت قمتها بأربعة رؤوس منفصلة ،وثالثهما مأذنه شغلت قمتها بخمس رؤوس منفصلة بينما عرفت الصوامع التونسية نمطاً واحداً فقط وهو الصومعة رباعية الرؤوس وبذلك تكون مصر قد انفردت عن تونس بالتنوع في أعداد الرؤوس حيث لم تعرف صوامع تونس كما ذكرت إلا شكلاً واحداً فقط وهو الصومعة ذات الرؤوس الاربعة ،ولكن سيبقى هناك عامل مشترك بين مصر وتونس وهو فكرة تعدد رؤوس المئذنة في المئذنه الواحدة.

والخلفية التاريخية الأشكال المآذن المصرية التي ظهرت فيها مولد هذه الظاهرة جاءت وفقاً للمصادر التاريخية في العصر المملوكي البحري،في عصر السلطان الناصر حسن بن قلاوون حيث افادت المصادر التاريخيه بأنه كان بمدرسة السلطان حسن مأذنه برأسين وذلك إستناداً على ما ذكره ابن كثير في حوادث سنة 762هـ حيث قال" وبلغنا في هذا الشهر ان سقطت المنارة التي بنيت للمدرسة السلطانية بمصر،وكانت مستجدة على صفة غريبة،وذلك انها منارتان على أصل واحد،فوق قبو الباب الذي للمدرسة المذكوره،فلما سقطت أهلكت خلقاً كثيراً من الصناع بالمدرسة والمارة والصبيان الذين في مكتب المدرسة ولم ينجو من الصبيان فيما ذكر شئ سوى

سته وكان جملة من هلك بسببها نحو ثلثمائة نفس وقيل أكثر وقيل اقل،فان لله وان اليه راجعون"[1] والنص السابق يوضح بأنه كان لمدرسة السلطان حسن منارة برأسين ،وان هذا النمط من المآذن لم يكن معروفا او مألوفا في مصر،وفقا لما ذكره ابن كثير بقوله"على صفه غريبه غير متعارف عليها"كما أوضح النص التكوين المعماري بشكل لا يقبل التأويل او التفسير الخاطئ بقوله "منارتان على أصل واحد" [2]وفقاً لهذا النص واستناداً على التأريخ المذكور والمسجل لسنة الحدث فى سنة 762هـ ، تعتبر مدرسة السلطان حسن هى النموذج الأقدم الذي يؤرخ به لهذا النمط من المآذن المتعددة الرؤوس فى مصر، كما نسب بعض الباحثين أول ظهور المئذنة ذات الرأسين الى جامع الغمرى بميت غمر وجامع العمرى بالمنيا ويرجع تاريخهما الى القرن الثامن الهجرى[3].

أما فى العصر المملوكى الجركسى فقد كان الأمر أكثر وضوحاً حيث ان معظم الامثلة مازالت قائمة الى اليوم وتمكن الدارس من دراستها من الناحيتين المعمارية والفنية وقد بدأت ظهورها فى منارة السلطان جنبلاط

---

[1]) ابن كثير:البدايه والنهايه،جـ3،دار الفكر بيروت،1998م،ط9،ص534

[2])ابن كثير :البداية،ص277

[3]) يذكر محمود احمد ان اول ظهور لهذا الطراز من المأذن ذات الرأسين كان خارج القاهرة في جامع الغمري بميت غمر،ثم انتقل الى القاهرة،واذا صح هذا الرأي فستصبح مأذنه جامع الغمري أقدم من مأذنة جامع ومدرسة السلطان حسن عام 763هـ،انظر محمود احمد

بباب النصر[4]، والمؤرخة فى 905هـ/1500م حيث كانت منارتها تحمل رأسين منفصلتين[5].

ثم ظهرت بعد ذلك في منارتي المدرستين اللتين شيدهما الأمير قانى باى الرماح الأولى بميدان الرميلة عام 908هـ /1502م[6]، والثانية بالناصرية فى عام 911هـ/1505م[7] ،إنظر اللوحات أرقام 1،2 ،

ثم تابعت تلك الظاهرة استمراريتها فى مئذنتى جامع ومدرسة السلطان الغورى بمدينة القاهرة ، وقد أفادت المصادر التاريخية بأن منارة مدرسة

---

[4]) كانت المدرسة الجنبلاطية تلاصق باب النصر على يمين الخارج الى المقبرة التي أنشأها السلطان الاشرف جنبلاط في اوائل القرن العاشر،وقد ذكر علي باشا مبارك بأن المدرسة هدمت ولم يبق منها شئ،الا باب مسدود،أنظر علي باشا مبارك:الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمه والشهيره،مركز تحقيق التراث،ط2،الهيئه العامه للكتاب،1988م،ج2،ص199

[5] جاء في تاريخ المساجد الاثريه ان مأذنه المدرسة الجنبلاطيه كانت مزدوجة ،ونقل عن الجبرتي بأنها هدمت في عام 1214 هـ/1799م أنظر حسن عبد الوهاب:تاريخ المساجد،ص 284

[6] كانت المئذنة التي شيدت مع انشاء المدرسة والواقعه بجوار المدخل الرئيسي قد هدمت نتيجة خلل وتصدع في الجزء العلوي منها في عام 1870م،وقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية باعادة بناء واستكمال المأّنه على طرازها القديم في عام 1358هـ/1939م ،راجع سامي احمد عبد الحليم:آثار الامير قاني باي الرماح بالقاهره،دراسة اثريه معماريه،رساله دكتوراه غير منشورة،كلية الآثار – جامعة القاهره،1976،ص 153

[7] انشأ الامير قاني باي الرماح مدرسة أخرى كانت بحي الناصرية بالقاهرة ،وكانت لهذه المدرسة مأذنة مزدوجة بخوذتين، وقد سقطت المأذنه بالكامل في اثناء اعمال الترميم التي كانت تجري بالمدرسة في عام 1988م،والتي كانت تعمل على سحب وتخفيض منسوب المياه الجوفيه تحت ارضية المأذنه مما تسبب في انهيارها تماما وللأسف لم يتم اعادة بناءها على ما كانت عليه،انظر سامى عبد الحليم:آثار الامير قاني باي ،ص 153

السلطان الغورى كانت عند بنائها مكونة من أربعة رؤوس منفصلة فى عام 909هـ/1503م ولكنها تداعت مما جعل معمار الغورى يعيد بنائها برأسين وذلك وفقاً لنص المؤرخ ابن اياس حيث قال "حصل خلل وميل بهذه المنارة وآلت الى السقوط بسبب ثقل علوها لكونها تشمل على اربعة رؤوس فأمر السلطان بهدمها واعادة بنائها برأسين"[8] وقد ظهر ذلك جلياً فى رسم الرحالة بريس دافين فى عام 1850م حيث ظهرت منارة مدرسة الغورى برأسين فقط ويحيط بدورتها درابزين من الخشب[9] أنظر اللوحة رقم 3

الا انه قد ادخلت على عمارة المنارة اضافات فى فترة متأخرة جعلت المنارة حاملة لخمسة رؤوس منفصلة[10] أنظر اللوحة رقم 5,4،

اما المنارة الثانية للسلطان الغورى فهى بجامع الأزهر 915هـ/1505م[11] ،وقد جاءت لتؤكد على اصل الفكرة فى عصره (انظر

---

[8]) (محمد ابن احمد الحنفي) ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور،تحقيق محمد مصطفى،مركز تحقيق التراث بالهيئه المصريه العامه للكتاب،القاهره،1984،ج4،ص58

كما جاء في حجة وقف مدرسة السلطان الغوري وصفا لمأذنه المدرسة بما نصه"فالواجهه الاولى وهي القبليه بها في طرفها الغربي منار يشتمل على ثلاث ادوار يعلو الدور الثالث منها اربعة خوذات كل خوذه منها في دور مستقل محمولة على اربعة دعايم وبكل خوذة ثلاث صواري رسم الثريات" محمد فهيم:مدرسة السلطان قانصوة الغوري ،رسالة ماجستير غير منشورة،كلية الآثار جامعة القاهرة،1977،ص201

[9]) استبدلت الخوذة الرابعة بمأذنة السلطان الغوري بخوذتين فقط عند اعادة بناءها ،وهذا ما يستدل عليه من خلال رسم الرحاله بيرزامين" في عام 1850

[10]) حسن عبد الوهاب:تاريخ المساجد، ص292

اللوحة رقم 5,6)،كما ظهرت المنارة ذات الرأسين في منطقة الواحات بمدينة القصر في احدى مساجدها مما يدلل على انتشارتلك الظاهرة في الأقاليم المصرية[12] انظر لوحة رقم 7.

ومع نهاية العصر العثمانى فقد وصلتنا منارة جامع ومدرسة ابو الذهب بالازهر 1175هـ/1761م مكونة من خمس رؤوس صريحة اصيلة[13] انظر اللوحة رقم 8 ، مما يعضد اصالة الفكرة وبلورتها لدى المعمارى حينذاك.

ويتضح من العرض السابق بأن مآذن مدينة القاهرة وبعض مدن الوجهين البحرى والقبلى قد ظهرت فيهما ثلاثة انماط من المآذن متعددة الرؤوس وهى:

النمط الاول :

---

[11]) جاء في ابن اياس ان السلطان الغوري امر ببناء مأذنة الجامع الازهر في عام 915هـ/1510م،وهي تتميز بضخامتها وبرأسها المزدوجة انظر ابن اياس:بدائع الزهور،ج5،ص94،كما تتميز مأذنة السلطان الغوري بالأزهر بوجود سلمين فيما بين شرفتها الأولى والثانيه،انظر عبد الله كامل:تطور المأذنه المصريه بمدينة القاهرة،رسالة دكتوراه غير منشوره،كلية الآثار –جامعة القاهرة-،1994م،ص527

[12] سعد عبد الكريم شهاب :بلدة القصر وآثارها الاسلامية ،سلسلة مدن تراثية(7) ،دار الآفاق العربية ،ط1،2001، لوحة 37 علما بان الباحث لم يشر في دراسته عن مدينة القصر لهذا النمط من المآذن أو تلك الظاهرة المنفردة بمنطقة الواحات

[13]) شيدت مأذنة جامع ابو الذهب زمن انشاء الجامع في عام 1187هـ/1773م،وقد شيدت المأذنه على غرار المأذن المصرية المغربية وليست على الطراز العثماني،حسن عبد الوهاب:تاريخ المساجد،ص353

جاءت قمة منارته من رأسين منفصلتين على بدن واحد ،ومن امثلة ذلك الباقية مئذنة قانى باى الرماح بميدان القلعة 908هـ/1502م ومئذنة السلطان الغورى بجامع الأزهر 915هـ/1507م الى جانب منارتى جامع الغمرى والعمرى بالوجهين البحرى والقبلى وبعض مساجد مدينة القصر بالواحات انظر لوحة رقم 1,2,6,7 .

النمط الثانى :

جاءت قمة منارته من اربعة رؤوس صريحة ومنفصلة ،ومن أقدم أمثلتها منارة السلطان الغورى فى عام 909هـ/1503م عند أول انشائها .

النمط الثالث :

جاءت قمة منارته من خمس رؤوسة منفصلة ،ومن أقدم أمثلة هذا النمط جامع ومدرسة السلطان الغورى ومحمد بك أبو الذهب بالأزهر 1175هـ/1761م أنظر لوحة 4,5,8

ومن الجدير بالذكر ان كافة الانماط الثلاثة للمآذن ذات الرؤوس المتعددة فى مصر قد جمعها تكوين معمارى ساعد على حمل قمتها لاكثر من رأس واحد ،فعلى سبيل المثال نجد المآذن المكونة قمتها من رأسين منفصلتين قد تشابهت عمارتها من حيث التكوين المعمارى لكرسى المئذنة والطوابق المتتالية[14]

[14])جاء تخطيط المأّذن الحاملة لخوذتين من كرسي مستطيل الشكل،اما التكوين المعماري فهو من دورين فوق الكرسي الدور الثاني جاء على نفس تخطيط الكرسي ،اما الطابق الثالث فهو الذي يحتوي على فانوسين لكل منهما خوذه مستقله،وهذا من وجهة نظري التخطيط الامثل الذي يسمح بوجود رأِسين متجاورين

،بينما اتخذت المآذن الحاملة لخمسة رؤوس طراز الصوامع المغربية الاندلسية والتى شيدت على هيئة الأبراج ،وهذا يعطينا فكرة واضحة ان المعمارى قد راعى فى تخطيطه للمسقط الافقى لكتلة المئذنة ماتحمله من أعداد لرؤوس منفصلة مما يؤكد على أصالة الفكرة وبلورتها لدى المعمار المصرى[15] .

الخلفية التاريخية للصوامع التونسية ذات الرؤوس الأربع :

اختصت مدن وقرى منطقة الجريد[16] بالجنوب التونسى فى توزر[17] ونفطة[18] وبدقاش وغيرها بظهور نمط من الصوامع التونسية له أربعة رؤوس منفصلة

---

[15]) هذا النمط من تخطيط المآذن يعود أصله الى تأثير قيرواني من صومعة جامع القيروان 105هـ/788 م،التي ينسب انشاءها الى بشر بن صفوان الوالي الاموي على القيروان حينذاك،وقد انتشر هذا النمط في مصر منذ العصر الفاطمي،انظر محمد محمد الكحلاوي:العمارة في الغرب الاسلامي،مساجد الموحدين في المغرب دراسة اثريه،رساله دكتوراه غير منشورة،كلية الاثار،جامعة القاهرة،1985،ص414

[16]) تعرف ببلاد الجريد الصغرى وتمتد الى جبال الاطلسي الكبير عند المكان التي تلقى فيه مملكة تونس من قسنطينة،وتسمى بلاد التمر،انظر مارمول كربحال:افريقيا،ترجمه عن التونسية محمد حجي،محمد زنيد،منشورات الجمعية المغربية،الرباط،1983،ص42

كما ذكر الوزان ان بلاد الجريد تمتد من تخوم مسكره الى تخوم جزيرة جربه،ويبعد جزء منها بعيدا عن البحر المتوسط كقفصة،وتوزر الواقعتين على بعد 300 ميل للداخل،انظر الحسن بن محمد الوزان القاسم المعروف بليون الافريقي:وصف افريقيا،ترجمة محمد حجي،منشورات الجمعية المغربية،دار الغرب،بيروت،1983،ص 142

[17]) يقول الحموي عنها بأنها مدينة في اقصى افريقيا من نواحي الزاب الكبير،من أعمال الجريد،وقد ذكرها البكري بأنها مدينه بها سور من الحجر والطوب ولها جامع محكم البناء واسواق كثيره،وحولها رياض واسعه وهي مدينة حصينه،لها اربعة ابواب،كثيرة النخل والبساتين،وهي اكثر بلاد افريقيا

،وهى ظاهرة لانستطيع ان نقول بانها عابرة او تمثل حالة او حالتين ولكن الحقيقة انها تجسد طرازاً مختلفاً للصوامع التونسية ،ومن الجدير بالذكر ان تلك الصوامع ذات الرؤوس الأربعة قد حافظت على نمطيتها بدون النظر لحجم او ارتفاع او انخفاض الصومعة ،كذلك لم تعرف الصوامع التونسية فى تلك المنطقة صوامع تكونت قمتها من رأسين أو خمسة رؤوس فقط ،ولكنها كما سبق وذكرت انفردت الصوامع التونسية في منطقة الجريد بهذا النمط الفريد سواء من ناحية التصميم المعمارى أو من ناحية الاسلوب البنائى المحلى ، مما يؤكد أن وراء هذا النمط عامل اجتماعى او ثقافى ديني كان له أثر واضح في ظهور هذا النمط .

وكانت لزيارتى الميدانية فى ربيع 2001م أكبر الأثر فى تتبع هذا النمط من الصوامع المغربية عامة والتونسية بخاصة، وكانت اولى المحطات التى وقفت بها مدينة نفطة[19] وهى مدينة صغيرة ولكنها فرضت نفسها بما تكتنزه من اساليب فنية محلية مبدعة تجسدها وتبلورها اساليب البناء بمداميك الآجر

تمر،انظر شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت الحموي:معجم البلدان طبقة دار السعادة،مصر 1906،جـ2 صـ 428،وأنظر أبى عبيد الله البكرى :المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب،مكتبة المثنى،بغداد،ص48.

[18]) قال عنها البكري "مدينة بافريقيا من اعمال الزاب الكبيرواهلها شراه اباضية متمردون، البكري:المغرب،ص 48

[19]) تمتاز مدينة نفطة بطابع معماري محلي جاء نتيجة استخدام المعماري لاسلوب بنائي مختلف في عمارة المدينة تعتمد على ايجاد تشكيلات فنية في تركيبات هندسية من خلال مداميك الاجر المستخدمه في البناء مما اضفى على عمارة نفطة سمة خاصة بها.

وفق قوالب فنية اعتمدت على تشكيلات هندسية معقدة ،وتحتوى المدينة على عدة مساجد خططت وفقاً للطراز المحلى فيها،أنظر اللوحة رقم 9,10 جامع سيدى مخارج الذى اعيد بناءه فى القرن 12هـ/18م [20] أنظر اللوحة رقم11 وقد جاءت صومعة المسجد بارتفاعها البسيط لتحمل على قمتها أربعة رؤوس عبارة عن قبيبات منفصلة يتميز قطاعها الرأسى بالتدبب وقد شيدت تلك القبيبات على مسطح مستوى بدون مناطق انتقال وذلك لصغر حجمها انظر اللوحة رقم 12,13 ،وقد اعتمد المعمار فى طريقة بناءها على حلقات مداميك الآجر التى تأخذ فى الصغر كلما اتجهت لأعلى (انظر اللوحة رقم 12) .

ويتكرر هذا التصميم المعمارى فى صوامع مدينة نفطة فى جامع سيدى إبراهيم بن أحمد الذى تطابقت منارته مع جامع سيدى مخارج السابق ،وكذلك تعد صومعته تكراراً لمثيلتها فى صومعة سيدى مخارج سواء من حيث بساطة البناء والتكوين ،وكذلك عدد رؤوس الصوامع الأربعة (أنظر اللوحة رقم 14,15)وعلى مقربة من هذا الجامع يوجد ضريح سيدي مزهود وقد ألحق بمسجد صغير في حجمه ولكن احتفظ تخطيطه المعماري بالنمط المحلي وكذلك صومعته الصغيرة التي شكلت عمارتها وفق التقاليد والاساليب

[20]) كثرت مزارات الاولياء بمنطقة الجريد بشكل يوحي بعظم التأثيرات الدينية على أهالي المنطقه،وهذا الجامع قد تعرض الى اضافات معمارية وتجديدات حافظت على شكله المعماري وتخطيطه ولكن وللأسف لا يوجد نقوش نستطيع من خلالها ان نحدد تاريخ أنشائه.

المعمارية المحلية أنظر اللوحة رقم 16,17 وقد جاءت قمة الصومعة من أربعة رؤوس على غرار مثيلتها في مساجد نفطة أنظرلوحة رقم 17 .

وعلى بعد أقل من كيلومتر تقريباً ،قمت بزيارة مسجد سيدى عبدالله التروبيسى بمدينة بدقاش الذى اعيد بناءه فى القرن 11هـ/17م ،ويحتوى الجامع على صومعة صغيرة فى حجمها وارتفاعها ،ولكن بديعة فى طريقة واساليب البناء التى شيدت بها حيث جاءت جدرانها من صفوف المداميك الآجرية تشكيلات هندسية محلية بديعة ،وهى كما سبق وذكرت من خصائص العمارة البيئية بمنطقة الجريد بالجنوب التونسى (أنظر اللوحة رقم 18,19) .

أما قمة الصومعة فقد ركبت عليها أربعة رؤوس منفصلة عبارة عن قبيات صغيرة شيدت على سطح مستوى بدون منطقة انتقال وقد اتخذت هيئة القبيبات هيئة بصلية نتيجة القطاع الرأسى لعقودها المدببة (انظر اللوحة رقم 19) ،وعلى مقربة من مسجد سيدى عبدالله يوجد مسجد جامع كبير يعرف بإسم مسجد أولاد ماجد وربما يرجع اسمه لاحد مضارب القبائل القاطنة بالمنطقة ،والجامع يتميز بمساحته الكبيرة ويعود بناءه الى القرن 8هـ/14م ، وتعد صومعة الجامع تحفة معمارية من حيث التصميم المعمارى وبخاصة منطقة انتقال القباب الأربعة القائمة على قمة الصومعة (انظر اللوحة رقم 20) ،حيث شكلها المعمارى المحلى من اربعة عقود متقاطعة جمعت أربعة أرجل منها لترتكز على رأس العمود الصاعد من وسط الصومعة أنظر لوحة رقم 22 مما ينتج عنه وجود اربع تربيعات صحيحة ثم قام المعمارى بشطف

زوايا تلك التربيعات بتجويفات مقرنصة خلقت فى اركان كل مربع تحصر فيما بينها تجويفات متشابهة لها بحيث يكون مجموع تجاويف القبة الواحدة مكون من ثمانية تجويفات مقرنصة يعلوها رقبة القبة التى مهدت لوجود الخوذة ذات المسقط الدائرى انظر لوحة 21,23،وهذه الطريقة فى البناء تعد من الأساليب المعمارية المتطورة بالنسبة لصناعة مناطق انتقال القباب فى منطقة الجريد (انظر اللوحة رقم 24,25) ،وهذه الصومعة تعد بحق تحفة معمارية من حيث اساليب بناءها التى تعتمد على التقاليد البيئية ولكن فى قالب متطور ،وهى فى نفس الوقت تؤكد على عبقرية المعمارى المحلى ومهارته فى بلورة عناصره المعمارية وفقاً لأساليب ونظم بنائية سليمة (أنظر اللوحة 24)

اما المحطة الأخيرة فى زيارة أقاليم الجنوب التونسى وكانت فى مدينة توزر[21]، حيث قمت بزيارة مسجدها الجامع الذي يعود بنائه الي القرن 6هـ/12م [22]و يعد محرابه تحفة معمارية رائعة تعبر عن فنون عصر المرابطين في عهد علي بن يوسف حيث شهدت تلك الفترة تزاوج بين الفنون الاندلسية و المغربية اذ تكدست الزخارف النباتية و الهندسية و الكتابية في حشوات جصية بديعة لا يتوافق تراثها الفني مع طبيعة عمائر المنطقة التي تميل فنونها إلى البساطة و التقشف الي حد كبيروالتي تذكرنا بفنون عصر

[21])وصفها ياقوت الحموي بأنها مدينة مسورة بالحجر والطوب وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب،الحموي:المعجم،ج2،ص428

[22]) وقد ذكر البكري عن جامع توزر بأنه جامع محكم البناء انظر البكري: المغرب،ص48

الموحدين في عهد المهدي وخليفته عبد المؤمن[23] ، اما صومعة الجامع فقد سقط نصفها العلوي في فترة متأخرة،ويذكر بعض الاهالي ان الصومعة كانت حاملة الأربعة رؤوس،و ليس رأسين كما أشار الي ذلك بعض الباحثين،و علي اي حال فإن تاريخ عمارة هذا الجامع تجعلنا نؤكد علي ان الصومعة رباعية الرؤوس هي اقدم نموذج علي الاطلاق في العمارة الاسلامية (انظر اللوحة رقم 26)،ومنها استمد المعماري المحلي في استمرارية الحفاظ علي بناء الصوامع رباعية الرؤوس بمنطقة توزر و ما حولها و علي مقربة من المسجد الجامع بتوزر يوجد جامع الناعوره..،أنظر اللوحة رقم 27 و المسجد اعيد بناءه في القرن 12 هـ و تخطيطه المعماري و اسلوب بناءه استمرار للتقاليد المحلية اما صومعته وبرغم من صغر حجمها و قلة ارتفاعها إلا إنها جاءت لتعبر أيضا عن أصالة تخطيطها سواء من حيث التكوين المعماري بجسم الصومعة او من ناحية عدد الرؤوس الاربعة التي اعتلت قمتها انظر اللوحات ارقام(27،28) و من الجدير بالذكر ان هناك نسبة صحيحة بين مساحة المساجد و ارتفاعات الصوامع بشكل تضفي عملية من التوازن بين الامتداد الافقي للمسجد و الارتفاع الرأسي للصومعة مما يمكن الناظر من رؤية الرؤوس الأربعة لصوامعها من أي اتجاه.

واخيراً و علي مقربة من مدخل مدينة توزر يوجد جامع سيدى عبيد الأخضر وهو من مساجد القرن 12هـ/18م ويقال ان المسجد أقدم من ذلك (انظر

---

[23] الكحلاوي:عمائر الموحدين –ص416 وانظر توريس بلباس الفن المرابطي والموحدي،ترجمة سيد غازي –الاسكندرية 1978ص17

اللوحة رقم 29) ومهما يكن تاريخ المسجد فان اسلوب عمارته وبخاصة صومعته تبلور الاساليب الفنية والخصائص المعمارية لمساجد المنطقة ،حيث جاءت الصومعة شاهقة الارتفاع ولكنها احتفظت بالتقاليد المحلية فى طريقة البناء بمداميك الاجر فى اطار زخرفى وكذلك فى القباب الأربع التى تعلو قمة الصومعة (انظر اللوحة رقم 30) .

وبعد ان استعرضنا منطقة الجريد بالجنوب التونسى وأوضحنا معالمها وخصائصها المعمارية والزخرفية ونمط صوامعها رباعية الرؤوس والتى ركبت على كافة صوامع مساجد المنطقة، بما يثبت ويؤكد اصالة التخطيط والطراز داخل المنطقة الجغرافية المحددة ،ولم يبق لنا الا ان نؤكد على أن الصوامع التونسية ذات الرؤوس الأربعة هى بلا شك الاقدم بالنسبة لمثيلتها فى مصر وان طرازها يعود الى موروث فنى وديني، يعود الى فترة مبكرة ،كما ينبئ بأن أهل تلك المناطق قد وجدوا فى هذا النمط من المآذن هو تلبية لرغبة او تأثير أيدلوجى لم تخرج تأثيراته عن حدود المنطقة.

فكرة تعدد رؤوس المئذنة ودلالاتها :

من الصعب على الباحث ان يكتب عن الدلالات التى تكتنزها بعض العناصر المعمارية فى العمارة الاسلامية ،لكون مثل هذه الدراسات تتطلب الالمام الكامل بمعارف كثيرة سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو بيئية أو مذهبية او غيرها ،حتى يتسنى للباحث ان يربط بين نوع التأثير والتشكيل المعمارى وطبيعة هذا الموضوع أو تلك الدراسة، تتطلب منى البحث فى العديد من المجالات وبخاصة ان موضوع الدراسة لايتعلق بمنطقة واحدة فقط

يسهل حصرها من الناحية الجغرافية والاجتماعية والدينية ،ولكن ظهورفكرةتعدد رؤوس المآذن فى بعض المدن المصرية ،مما يصعب مهمة الدارس فى تتبع مسار الظاهرة المعمارية وكذلك المعابر التى انتقلت من خلالها تلك الظاهرة المعمارية الى اأاقطار الأخرى[24] ، وهذا مايجعلنى أو يلزمنى بان أفصل بين مصر وتونس فى دراستى التحليلية ،حيث ان وضعية الصوامع التونسية ذات الرؤوس الأربعة تختلف تماماً من حيث الاطار الجغرافي والاجتماعي والثقافي بل والاتجاهات المذهبية مع مثيلتها فى مصر.

بمعنى أخر أرى أن الوازع على انشاء هذا النوع من المآذن متعددة الرؤوس فى مصر له دلالات تختلف عن مثيلتها فى تونس ،اى ان لكل من مصر وتونس مصادره الابداعية التى أحثت معماره على انشاء هذه النوعية من المآذن متعددة الرؤوس .

وقبل أن أمضى فى طرح الدلالات الفكرية أو العقائدية المرتبطة بهذه النمطية من المآذن ، أجد أن هناك طرح لتساؤل يفرض نفسه يتعلق بفكرة تعدد المآذن فى المسجد الواحد ،وهى الفكرة التى ربما تكون الخلفية التى بنيت

[24]) ذهب بعض الباحثين الى نسبة هذه النوعية من المآذن متعددة الرؤوس الى تونس واعتبروا وجوده في مصر من باب التأثيرات المغربية الوافده ،وفي الحقيقة ان هذه النسبة الى تونس جانبها الصواب حيث ان فكرة تعدد المآذن في مصر اختلفت من حيث الشكل والمضمون مع مثيلاتها في تونس، انظر محمد عبد الستار عثمان:نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهره-رساله دكتوراه-جامعه اسيوط،كلية الآداب سوهاج،1979،ص251

عليها فكرة تعدد رؤوس المآذن فى المئذنة الواحدة وربما تكون فكرة التعدد فى كل منها ليس لها علاقة بالفكرتين تماماً حيث ان لكل منهما اسبابه الجوهرية التى حققت الغرض الوظيفي منها ،ولكن ارى من المفيد ان اناقش فكرة تعدد المآذن فى المسجد الواحد من باب الاستدلال فقط .

وفكرة تعدد المآذن فى المسجد الواحد بدأت من جامع عمرو بن العاص بالفسطاط 53هـ/ 670 م فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد الانصارى[25] ثم ظهرت بالجامع الأموى فى عهد الوليد بن عبد الملك بدمشق 82هـ/ 701م [26]ثم ظهرت فى المسجد الحرام والنبوى [27] فى العصر الاموى مع زيادة الوليد 83 هـ/ 702 م [28]،ثم عادت وظهرت فى العمارة الفاطمية بمصر فى جامع الحاكم393هـ/ 1003 م ثم واصلت ظاهرة قمة تعدد المآذن فى المسجد الواحد فى مصر فى الاضافات المملوكية في الجامع الازهرفي

---

[25]) يعد مسلمه بن مخلد الانصاري أول من اتخذ اربع صوامع للمؤذنين في أركان المسجد وقد نقش اسمه عليها،ثم امر باتخاذ المنارة في المسجد انظر ابن دقماق:الانتصار لواسطة عقد الامصار،ج4،ص59،وانظر حسن عبد الوهاب:تاريخ المساجد،ص24

[26]) عبد القادر الريحاوي:العمارة في الحضارة الاسلامية،طبعة جامعه الملك عبد العزيز،جدة،1981،ص44

[27]) منذ الاضافات المعمارية التي قام بها الخليفه المهدي العباسي في المسجد الحرام في عام 158 هـ،اصبح للمسجد اربع مأذن في اركانه الاربعه انظرلوحة 20

[28]) اجرى الوليد بن عبد الملك عمارة هامه في المسجد النبوي كان منها وأهمها انه جعل للمسجد اربع مآذن بواقع مأذنة بكل ركن من اركانه.

القرنين التاسع والعاشر الهجريين [29] كما انتشرت انتشاراً واسعاً فى مساجد المشرق الاسلامى وخاصة فى العراق[30] وايران[31] وتركيا [32]حيث احتوت على سبيل المثال بعض المساجد العثمانية على مئذنتين وبعضها على اربع مآذن والبعض الآخر على ست مآذن فى المسجد الواحد ،بينما في ايران وصل عدد المآذن في المسجد الواحد في بعض منها إلى ثماني مآذن، وهذا يدل على أن وراء هذا الفكر وازع قد أحث عليه أو وظيفة تبررها.

ومن الجدير بالذكر ان بلاد المغرب والاندلس لم تعرف مساجدها فكرة تعدد المآذن فى المسجد الواحد ،وهذا يرجع الى حد علمى الى حجم وضخامة الصومعة المغربية والأندلسية، علماً بأن صومعة جامع قرطبة ووفقاً لنص

---

[29]) تعددت مأذن الجامع الازهر منذ العصر المملوكي والجركسي لتصل الى خمس مأذن منها المأّذنة الاقبغاوية،والمأذنة الطيبرسية،ومأذنة عبد الرحمن كتخدا،ومأذنه الغوري ومأّذنه قايتباي.

[30]) عرفت روضات الأئمه في العراق فكرة تعدد المآذن ومن امثلته الروضه الحيدريه،والروضه العسكريه،والروضه الحسينيه،انظر ياسر اسماعيل:روضات الائمه، رساله دكتوراه غير منشوره،كلية الاثار جامعه القاهرة .

[31]) كما عرفت مساجد ايران فكرة تعدد المآذن في المسجد الواحد ومن أمثلته مسجد كوهر شاد،ويحتوي على مأذنتين،والمسجد الجامع بيزد وبه اربع مأذن،ومسجد امام بتهران وبه أربع مآذن ومسجد سبهسلار بتهران وله ثمانى مآذن، جلال يشمى : ورود ي مساجد، مقالة منشورة بمجموعة همايش معمارى مسجد كذشته، حال، آينده، دانشكاه هزبرديس، اصفهان، 1376، ص 681-696، ص690

[32]) ومن امثلة المساجد التركية ذات المآذن المتعدده جامع اوج شرفلي بأدرنه والذي شيده السلطان مراد الثاني 814هـ،وله اربع مأذن ومسجد السلطان احمد باستنبول وله ست مأّذن،انظر محمد احمد عبد اللطيف:مأذن العصر العثماني في مدينة القاهرة،دراسة اثرية معمارية،رسالة دكتوراه غير منشورة،جامعة حلوان،كلية السياحة ،القاهرة،2006م،ص24

الحميرى ،كانت تحتوى على سلمين فى داخل صومعتها احدهما فى الجانب الغربى والاخر فى الجانب الشرقى ،الصاعد عليها من اسفل ينفصلان ولا يجتمعان الا اذا وصلا لآعلى ،والنص السابق واضح فهو يبين ان لصومعة قرطبة سلمين منفصلين يؤديان الى قمة واحدة ركبت عليها رأس واحدة [33].

وفى الحقيقة لم يهتم أحد من الباحثين بتتبع فكرة تعدد المآذن فى المسجد الواحد واكتفت معظم الدراسات فى طرح ووصف التفاصيل المتعلقة بالشكل فقط ،اما فيما يتعلق بفكرة تعدد المآذن فهى فكرة ليس لها سند شرعى حثت عليه كتب الفقه الأسلامى ،ولكن من وجهة نظرى فان فكرة تعدد المآذن ارتبطت بعاملين اساسيين اولهما يتعلق بالعامل الوظيفى للمئذنة والذى يتوافق مع عدد المؤذنين الذين يرفعون الأذان فى جماعة فى المسجد الواحد حتى يحدثون ضجيجاً يساعد على سماع اصواتهم عند الأذان [34]الى جانب وجوب رؤية المؤذن من كافة الجهات المحيطة بالمسجد للاستدلال على دخول وقت

---

[33]) الحميري:الروض المعطار في اخبار الاقطار طبعة الرباط،1978م ،صـ37 .

[34]) لقد شاع في العصر المملوكي الأذان المعروف بأذان الجوق او الأذان السلطاني ،والجوق هم الجماعه من الناس،وهو ان يجتمع للأذان جماعة من المؤذنين يؤذنون معا بحيث يأتي كل واحد منهم بأذان كامل،وهو عند الفقهاء اذان صحيح،وتحصل به اقامة شعيرة الصلاه،وهو امر يبين ان ما كان يحدث بالعمائر الدينيه المملوكيه حيث كان يعلن عن الاذان في وقت واحد ثلاث من المؤذنين كان في اطار شرعي،فقد كان النداء الى الصلاه مستخدما عندما فتح عمرو بن العاص مصر،وكان يؤذن للصلاه ابو مسلم سالم بن عامر،وقد ضم اليه عمرو بن العاص تسعه رجال يؤذنون،وقد كانت مما وصفت به المأذنة البرقوقية انها" عظيمه يؤذن عليها الاذان السلطاني" وجاء بوثيقة السلطان برقوق ما نصه"...ويصرف من ذلك لسته نفر من الرجال يكونوا حسان الاصوات" تقي الدين المقريزي:المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار،ج2،ص270، محمد عبد الستار عثمان:الوظيفيه،ص266

الصلاة ،وفى هذه الحالة يكون تعدد المآذن قد ارتبط حتماً بضخامة ومساحة المساجد ،وكذلك الموقع الذى تشغله تلك المساجد ذات المآذن المتعددة، بالنسبة للمدينة والمناطق الآهلة بالسكان والمحيطة بتلك المساجد من جميع الجهات ،اما العامل الثانى واقصد به العامل الفنى والذى يخضع لفكرة الاتزان بين الواجهات المتناظرة والتماثل بين الواجهات المتقابلة ،وهذه فكرة راسخة في وجدان الفنان المسلم وقد استخدمها في المآذن من باب التوزيع فقط .

نخلص مما سبق انه ربما يكون هناك ربط بين فكرة تعدد المآذن فى المسجد الواحد وبين فكرة أعداد رؤوس المآذن فى المئذنة الواحدة ،وربما يكون العكس بانه لاصلة بين هذا وذاك ولكن من المؤكد أن وراء كل منهما من الأسباب التي جعلت المعماري يلجأ إلى فكرة التكرار .

واستكمالاً لعملية تحليل تلك الظاهرة الخاصة بأعداد رؤوس المآذن فى المئذنة الواحدة تتطلب الدراسة التحليلية الفصل التام بين أنماط تلك المآذن ، ودراسة كل نمط على حدة استناداً على اعداد الرؤوس فى كل منها بمعنى أخر أن الوازع على بناء رأسين يختلف عن الوازع لبناء اربعة او خمسة رؤوس ،وهذا يمكننا من ايجاد التفسيرات المتوافقة مع كل نمط وفقاً لأعداد رؤوس المئذنة،علماً بانه يجب ان نتعامل مع هذه الظاهرة بإدراجها ضمن

العناصر المعمارية التى يعكس وجودها وظيفة معمارية أو فكرية[35] شأنها فى ذلك شأن حطات المقرنصات وصفوف الشرفات ..... الخ

أولاً: نمط المئذنة ذات الرأسين :

من خلال تحليلى لتلك الظاهرة يمكن تناولها من خلال البحث فى فكرة التوأمية او الثنائية[36] التى تجمع بين عنصرين متماثلين ومتشابهين ومتجاورين ،واستناداً عليهما نضع تصورنا حول التفسيرات المتوافقة مع توءمية العنصر او الثنائية والتى يمكن ان احصرها فى الآتى :

1. ربما ارتبطت هذه الثنائية بثنائية الأذان وتكرر كلماته الله اكبر الله اكبر ـ اشهد الااله الاالله اشهد الااله الاالله .... الخ .
2. ربما ارتبطت هذه الثنائية بثنائية الشهادتين "أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

---

[35]) اعتاد المعماري المسلم توظيف كافة عناصره سواء كانت معمارية او زخرفية بما يتوافق مع رؤيته الدينية أو بمعنى أخر يتخذ من بعض العناصر رموزا توحي بدلالات فكريه مذهبية ومن امثلتها فكرة المركب الموجوده على قبة الامام الشافعي وما توحيه من مضامين تشير الى ان صاحب الضريح هو بحر من العلوم، او ان من يتبع مذهبه فقد نجا فالمركب هنا اشارة إلى سفينة نوح،أو ان ما يتمناه اصحاب هذا المذهب هو ان ينتشر ويجوب الدنيا بحرا وبرا

[36]) عن فكرة الثنائية في العمارة الاسلاميه انظرمحمد محمد الكحلاوي:التماثل والاتزان في العمارة الإسلاميه،بحث بمجلة الاتحاد العام للاثاريين العرب،العدد الأول،1999،ص 94

3. ربما ارتبطت هذه الثنائية بوظيفتى الصلاة والتدريس ، اذ ان معظم المآذن التى وصلتنا متضمنة قمتها رأسين فى منشأة تجمع بين وظيفتى المسجد والمدرسة فى منشأة واحدة .
4. ربما ارتبطت ثنائية رأس المئذنة بعنصرى الفضاء الكوني السماء والأرض كناية بأن صوت الأذان بينهما .
5. ربما ارتبطت فكرة ثنائية رأس المئذنة بالمشرقين والمغربين استناداً الى قوله تعالى فى سورة الرحمن "رب المشرقين ورب المغربين" .
6. وربما ارتبطت فكرة ثنائية رأس المئذنة بتعاقب الليل والنهار ومافيهما من أوقات للأذان معلومة .
7. ربما ارتبطت فكرة ثنائية رأس المئذنة بفكرة الدارين الدنيا والأخرة أي أن الاذان مسموع للأحياء والأموات .
8. أو ربما ارتبطت فكرة ثنائية رأس المئذنة بمضاعفة الانارة التى تعلق على جواسق المآذن او فوانيسها وفقاً لوظيفتها المتعلقة بتعليق فوانيس الإضاءه للانارة ولمعرفة أوقات الصلاوات في الليل.

وفى الحقيقة إن التفسيرات السابقة التى تتوافق مع فكرة تؤمية رأس المئذنة التي أجد فيها ما يبرر للمعماري فكرة الاقدام على بناء المئذنة التؤمية، حيث انى لا ارغب كغيرى من الباحثين ان اكتفى بالبحث عن قرين لتلك الظاهرة فى مكان أو إقليم خارجى ليكون هو مصدر التأثير وفى هذه الحالة نطلق أحكاماً مسبقة غير مدروسة فمن يرى ان هذه الظاهرة تونسية

الأصل فهذا خطأ كبير حيث انها لم تظهر هناك قط ، بل تعد فكرة ثنائية او تؤمية رأس المئذنة من الابتكارات المصرية التى توافقت رؤيتها مع المعمارى المصرى بل وتعددت أمثلتها فى المساجد والمدارس فى القاهرة وخارجها ،وأمثلتها مازالت باقية غير النماذج المندثرة منها ، بينما لايوجد فى عمارة شمال افريقيا كلها نموذج واحد لهذا الطراز من المآذن ذات الرؤوس التوءمية .

وقد يختلف مع بعض الباحثين فى مجموعة التفسيرات السابقة التى ذكرتها، وهذا بطبيعة الحال حقهم حيث ليس من حقى ان افرض هذه التفسيرات كحقيقة حثت على وجود هذه الظاهرة او كانت الوازع الحقيقى على انشائها او على فكرتها ،ولكن سوف يظل جهدى محاولة لفهم ظاهرة لم يشأ بناتها أن يعبروا عن مغزاها او يكشفوا لنا ما تضمه من دلالات واسرار.

الخلاصة ان هذا النمط من المأذن التؤمية من حيث اعداد رؤوسها هي مصرية الطراز استنادا علي ما وصلتنا من نصوص تاريخية وما بقي منها من نماذج في العمائر الدينية المصرية ،حيث لم تظهر في اي أقليم أخر الي حد علمي أما ما تحمله تلك الظاهرة من دلالات وتفسيرات فلم تخرج عما ذكرته من تفسيرات .

نمط الصوامع التونسية ذات الأربعة رؤوس:

بعد استعراضنا نمط المآذن المصرية التؤمية و المكونة قمتها من رأسين منفصلتين،ننتقل الي الدراسة التحليلية ،الي نمط الصوامع التونسية ذات

الأربعة رؤوس، و التي كما سبق واوضحت بأن شيوعها في مناطق بلاد الجريد بالجنوب التونسي بتوزر وما حولها أمراً غريباً قياساً علي عدم ظهور هذا النمط في المدن التونسية الأخري حتى ولو في الأقاليم المجاورة و هذا ما جعلني أتوجه بدراستي نحو دراسة العوامل الاجتماعية و الدينية و الثقافية للمجتمع التونسي بتلك المناطق وقد كشفت الدراسة عن خصوصية كبيرة عاش بها سكان هذه المناطق تحت ظروف بيئية و اجتماعية صعبة مما استوجب ربط بعض نتائج ما توصلت إليه من نتائج ببعض الظواهر المعمارية فكانت التفسيرات العقائدية واحدة.من اهم الظواهر التي استدليت بها علي ظهور هذا النمط من الصوامع التونسية ذات الأربعة رؤوس اذ توافق هذا الشكل مع العامل الديني القابع في منطقة الجريد والذي يميز أهل المنطقة بالتشدد للمذهب الاباضي [37] الذي انتشر انتشاراً واسعاً في اقليم منطقة الجريد بالجنوب التونسي من أواخر القرن 2هـ/8م اذ ربما تعبر

---

[37]) الاباضية نسبة الي عبد الله بن اباض التميمي أحد بني رهط الافنس ابن قيس خرج أيام مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية .

كانت البصرة مركزاً للدعوة الاباضية و منها أرسل الدعاة إلي الأمصار و كانت الدعوة و تنظيمها سرية ،وقد سافر اربعة من زعماء الاباضية الي المغرب في سنة136هـ و عكفوا علي الاعداد لنشر المذهب و القيام بثورة و نجحوا في 140هـ في الاستيلاء علي طرابلس و القيروان ولكن تصدت الخلافة العباسية لتلك الدعوة.وقضت عليها ؛فعادت الدعوة الي السرية بزعامة عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي نجح في اعادة تنظيم الدعوة و اقامة دولة اباضية في المغرب الأوسط في عام 162هـ إلي أن سقطت علي يد الدولة الفاطمية في عام 297هـ

انظر العميد عبد الرازق محمد اسود:موسوعة الاديان و المذاهب .

الدار العربية للموسوعات ،المجلد الثاني ، ص 131-132

رؤوس الصومعة الأربع بالفرق الأربعة الرئيسية التي تندرج تحت المذهب الاباضي وهي :اليزيدية او الزيدية[38] و الحفصية[39] و الحارثية[40]، و اصحاب الطاعة[41].

و هذه الفرق و ما جاءت به من اختلافات فيما بينها ،الا انها اتحدت تحت المذهب الاباضي و الذي يعد من أقرب المذاهب لأهل السنة فيما جاء به من احكام[42] ، و أما عن رمزية و دلالة أعداد الرؤوس الاربعة في صوامع اقاليم الجريد في توزر و نفطة و بدقاش و غيرها فهي مما لاشك فيه تعبر عن تأثيرمذهبي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بأهل المنطقة[43] الذين يعدوا من المتشددين لمذهبهم، وربما انعكس ذلك كما سبق أن أوضحت على عمارة صوامع

[38]) اليزيدية نسبة الي يزيد بن انيسة من اهل البصرة ،انظرابي الفتح بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل و النحل ، صححة و علق عليه احمد فهمي محمد، 3 مجلدات طبعة دار الكتب العلمية بيروت ص 133

[39]) الحفصية نسبة الي ابن ابي المقدم انظر الشهرستاني ،المصدرنفسه ،ص 132

[40]) الحارثية نسبة الي حارث بن فريد الاباضي، نفس المصدر، ص 133

[41]) اصحاب.الطاعة.هم من فرق الاباضية،انظر محمد اسود: الموسوعة، ص 235

[42])محمد أسود :الموسوعة ،ص235

[43] محمود اسماعيل عبد الرازق :الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري طبعة الدار البيضة ،1976 ،صص187-191.

المنطقة من خلال رمزية رؤوسها الأربع ، أو ربما تعبر هذه الرؤوس عن المؤذنين الأربعة الذين اعتلو قمة الصومعة بحيث يقف كل مؤذن في منتصف ضلع من أضلاع الصومعة الأربعة آملين أن يكون آذانهم مسموع في الجهات الأصلية الأربع وما يحمله هذا الآذان من دعوة مكنونة تحمل في مضمونها آمال انتشار المذهب الأباضي في كافة ارجاء الدنيا ،آخذين في الاعتبار أن صوت المؤذن يحمل الاعلان والاعلام فهو يعلن الداني ويعلم القاضى وهي كلها أفكار متشبعة بأيدلوجية المذهب الذي يكمن في وجدان معتنقيه،وفي الحقيقة لا استطيع ان اذهب في تفسير لتلك الظاهرة الي ابعد من ذلك و قد ساعدني علي هذا الاطار الجغرافي المحدد للمنطقة الي جانب العامل الاجتماعي و الديني الذي اختصت به أهالي منطقة بلاد الجريد[44] الي جانب عدم شيوع ظاهرة رباعية رؤوس الصوامع في باقي المدن التونسية حتي في المدن القريبة[45] منها .

أدلل علي هذا التفسير الذي ربطت فيه بين رباعية رؤوس الصوامع في منطقة بلاد الجريد بالجنوب التونسي والمذهب الاباضي بفرقه الأربعة و الذي شاع بين اهالي المنطقة و بين مقابر الاباضية في بعض المدن الجزائرية بالمزاب و بريان و مرمارية[46] حيث شيدت بعض مخططات

---

[44] في دراسة قيمة أعدها الباحث روبير برنشفيك ونقلها للعربية حمادي الساحلي عن منطقة الجريد وانتشار المدارس الصوفية هناك في العصر الحفصي،فقد أكد على تشدد أهل منطقة الجريد للمذهب الأباضي انظر روبار برنشفيك تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ،ترجمة حمادي الساحلي ،طبعة دار الغرب الاسلامي، تونس، ص347

[45] Golvin(L):essai sur l"architecture religieuse musulmaneT.I(Genraliles)edition kincksieckParis 1970,49,50

[46] Ravereon,M'zab lecon d'architecture Paris ,sindbad,1981,pp104-160.

المقابر و مصليات الجنائز علي هيئة الصوامع ذات الرؤوس الأربعة و هي بذلك تؤكد علي بلورة فكرة رباعية الرؤوس في الفن الاباضي[47] الذي انتشر في العمائر الدينية يتلك المناطق انظر اللوحات ارقام 32،31.

و قد يطرح سؤال نفسه لماذا لم تنتشر رباعية رؤوس الصوامع في مساجد المنطقة نفسها بالجزائر؟؟ ، و الاجابة علي هذا الطرح تأتي في الغزو العثماني لهذه المنطقة و التي فرضت أنماط عمارتها بشكل كبير و مؤثر في صوامع مساجدها حيث خططت من مساقط أسطوانية و دائرية عليها قمة مخروطية.

و قد يري البعض أن فنون العمارة الاباضية الجنائزية بمنطقة الجريد و القبائل التي انتشر فيها الفن الاباضي تتسم بالتنوع والابتكار سواء من ناحية التخطيط أو من ناحية مادة البناء الجبسية[48]أما فيما يتعلق بظهور هذا النمط من المآذن رباعية الرؤوس في مصر والتي كانت تجسدها منارة الغوري عند انشائها، فهي من وجهة نظري ليست على صلة بمثيلتها في تونس ومن الصعب اعتبارها تأثير وافد من تونس وعلى الأرجح أعزي وجودها في منارة مدرسة السلطان الغوري إلى أمرين أولهما ربما يرجع إلى سنة التطور و التميز والتفرد التي أرادها لها معمارها إذا أخذنا في الاعتبار أن معماري المئذنة هو نفسه الذي سبق أن شيد منارتي الأمير قاني باي الرماح بميدان الرميلة والناصرية، فعندما يكلف نفس المعماري ببناء منارتي السلطان

---

[47] رشيد بوروبيه : المساجد في الجزائر –مطبعة المتمبرا-مدريد 1970، ص91

[48] بوريبا :المساجد ص88

الغوري في مدرسته وبجامع الأزهر فلابد وأن يجعلهما أكثر تميزاً وتفرداً عن غيرهما من المنائر ذات الرؤوس التؤمية ، وربما أن يكون لدى المعماري رؤية دينية خاصة تعبر عن ارتباط صوت الأذان بالاتجاهات الأصلية في الفضاء الكوني،ومن المؤكد أن أنوه بأن فكرة رباعية رؤوس مئذنة السلطان الغوري لم تكن من ورائها فكرة أيدلوجية أومذهبية خاصة كذلك لم يكن ظهورها في مصر من باب التأثيرات التونسية، ولو كانت كذلك كان من المفترض أن تظهر في مصر وتنتشر في العصر المملوكي البحري وهو العصر الذي شهد تطوراً كبيراً في العلاقات المصرية المغربية وكان لها تأثيرها الحقيقي الذي ظهر بوضوح في العمائر الدينية المدنية المملوكية سواء في مصر أو في بلاد المغرب.

النمط الثالث: مئذنة تتكون قمتها من خمسة رؤوس :

هذا النمط ظهر في مأذن مصر فقط دون غيرها من مآذن العالم الاسلامي ، بل وانحصر وجودها في مثلين فقط هما مئذنتي مدرسة ابو الذهب[49] (1175هـ / 1761م) بجوار جامع الأزهر،ومدرسة السلطان الغوري بالقاهرة فترة متأخرة [50]، وهذا النمط من رؤوس المأذن ذات خمسة رؤوس ليس له تفسيرا من وجهة نظري الا أمرين أولهما يتعلق بالصلاوت الخمس أي رفع الأذان لخمسة مرات في اليوم من اعلى المئذنة وثانيهما قد تعبر هذه الرؤوس الخمس عن أركان الاسلام الخمس التي لايكتمل ايمان

[49] عبد الوهاب ، المساجد ، ص.
[50] فهيم ، الغوري ، ص

المسلم الا بهما (شهادة أن لا إله إلا الله وان محمد رسول الله واقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) وربما يكون هناك تفسير ثالث من وراء هذه الرؤوس الخمس يتعلق بوظيفة مدرسة جامع ابو الذهب والتي خصصت لتكون مدرسة للمذاهب الأربعة أما الرأس الخامسة في هذه الحالة فربما تكون تعبيراً عن السنة المحمدية المطهرة التي نهل منها الفقهاء الأربع واستقوا أحكامهم الفقهية للمذاهب الأربعة (أنظر لوحة رقم 8).

أما من الناحية المعمارية فيجب أن نؤكد أن هذا النمط من الصوامع المغربية او المصرية كما سبق ان اوضحت قد تتطلب من المعماري تخطيطاً وتكويناً معمارياً مميزاً تساعد على حمل قمة المأذنة لأكثر من رأس وهذا ما جعل المعماري يشيد هذه النوعية من المآذن من مسقط مستطيل او مربع وكذلك التكوين المعماري لبدن المأذنة ياخذ نفس المسقط الخاص بكرسي المأذنة مع تصغير أضلاع الحطات الثلاثة لبدن المأذنة كلما ارتفعنا الى اعلاه بالنسبة للمآذن المصرية ، اما الصوامع التونسية فقد شكلت من تكوين معماري موحد اتخذ هيئة البرج .

الخلاصة :

وبعد العرض السابق الذي استعرضت فيه فكرة تعدد رؤوس المأذن بين مصر وتونس وحاولت أن أجد تفسيراً منطقياً يتوافق مع هذا النمط المعماري الفريد في عمارة المآذن، مما جعلني أذهب في تفسيراتي الى دراسة العوامل الاجتماعية والدينية والبيئية التي ربما تكون هي من وراء

ظهور هذه الانماط في مصر وتونس وذلك حتى لا تكون دراستي قد اقتصرت على الشكل فقط دون دراسة للمضمون والدلالة وما تعكسه من رمزية أو أفكار عبر عنها المعماري المسلم وفق رؤيته المذهبية او الفنية في نمط معماري متفرد وهذا ما جعلني أوكد أن العمارة الإسلامية وعناصرها المعمارية والفنية ستظل ميداناً خصباً للباحثين الذين يستقرؤون ويستنبطون ما تكتنزه فنون الإسلام من اسرار لم يكشف عنها بعد .

واخيرا ان محاولاتي المتواضعة هي تعبيرا شخصياً لرؤيتي قد تكون اصابة المقصد او جانبها الصواب .

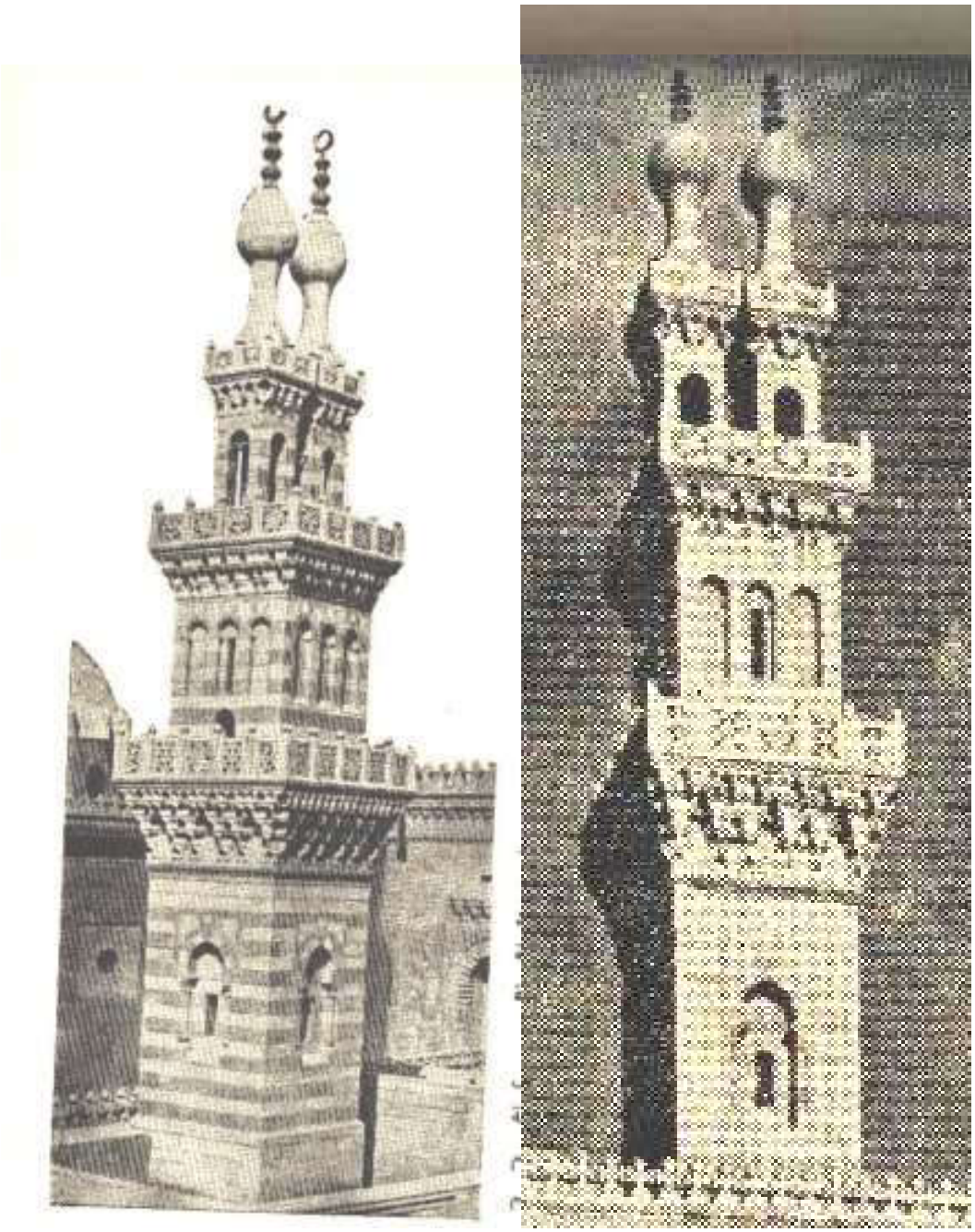

لوحة رقم 1

"مئذنة الامير قانى باى الرماح بميدان القلعة 908هـ/1502م

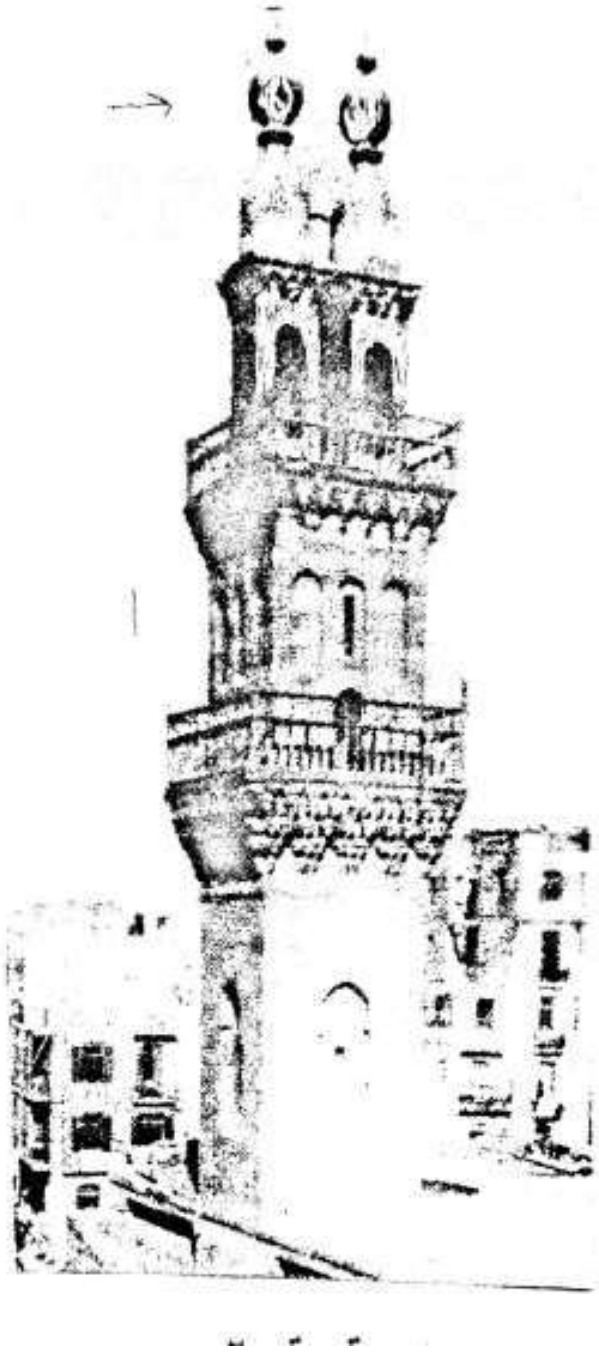

لوحة رقم 2

"مئذنة الامير قانى باى الرماح بالناصرية

لوحة رقم 3

مئذنة مدرسة السلطان الغورى ذات الرأسين "رسم الرحالة بريز دافين 1780م".

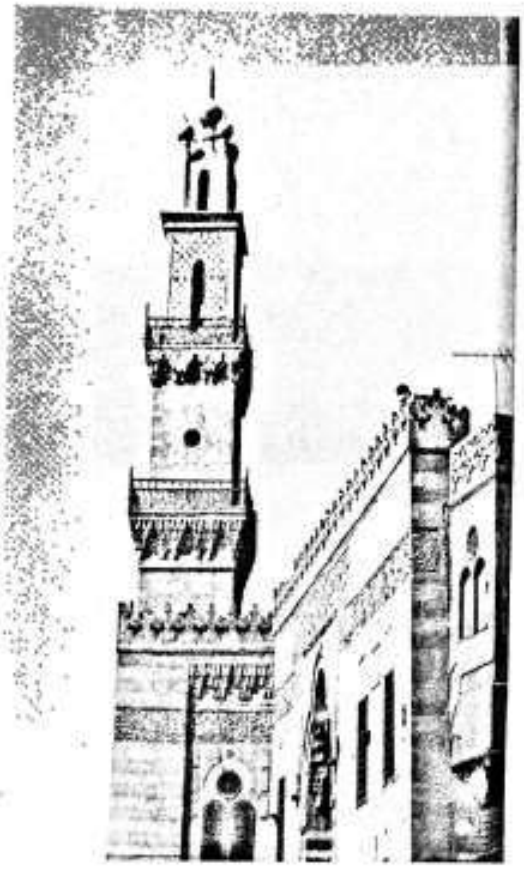

لوحة رقم 4

مئذنة مدرسة الغورى ذات الخمس رؤوس .

لوحة رقم 5
مئذنة الغورى بمدرسته وعليها خمسو رؤوس منفصلة

لوحة رقم 6

مئذنة السلطان الغورى لجامع الازهر قمتها من رأسين منفصلتين

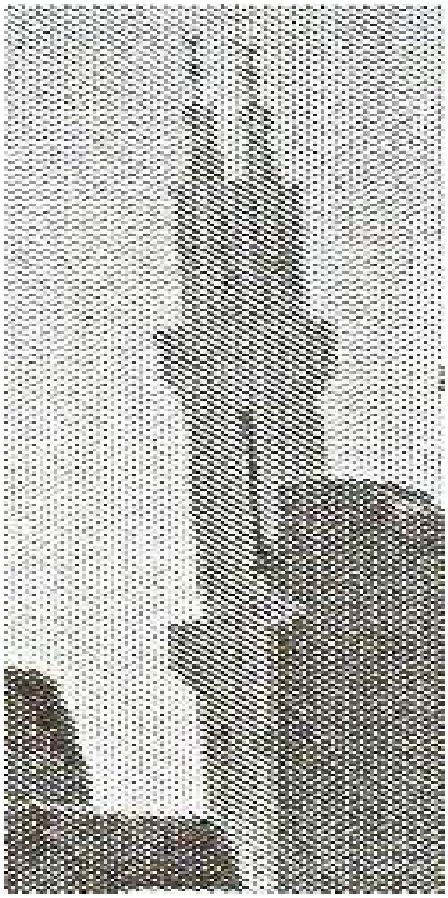

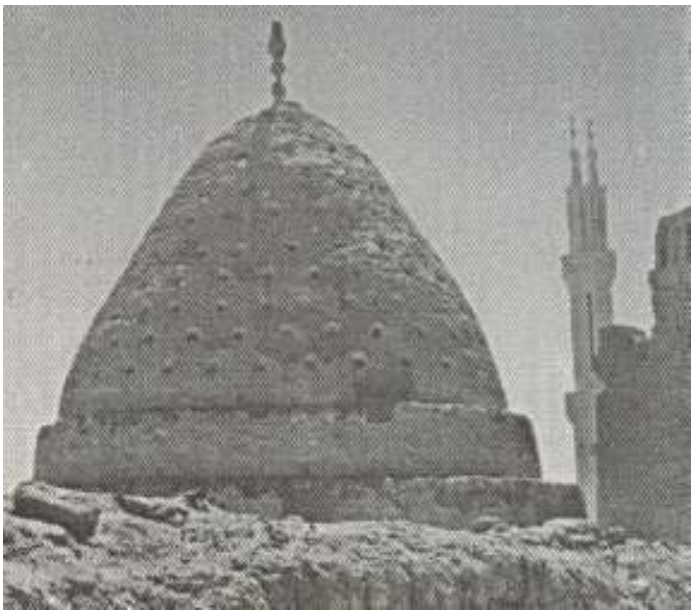

لوحة رقم 7

تمثل ظهور للمئذنة ذات الرأسين فى احد مساجد مدينة القصر

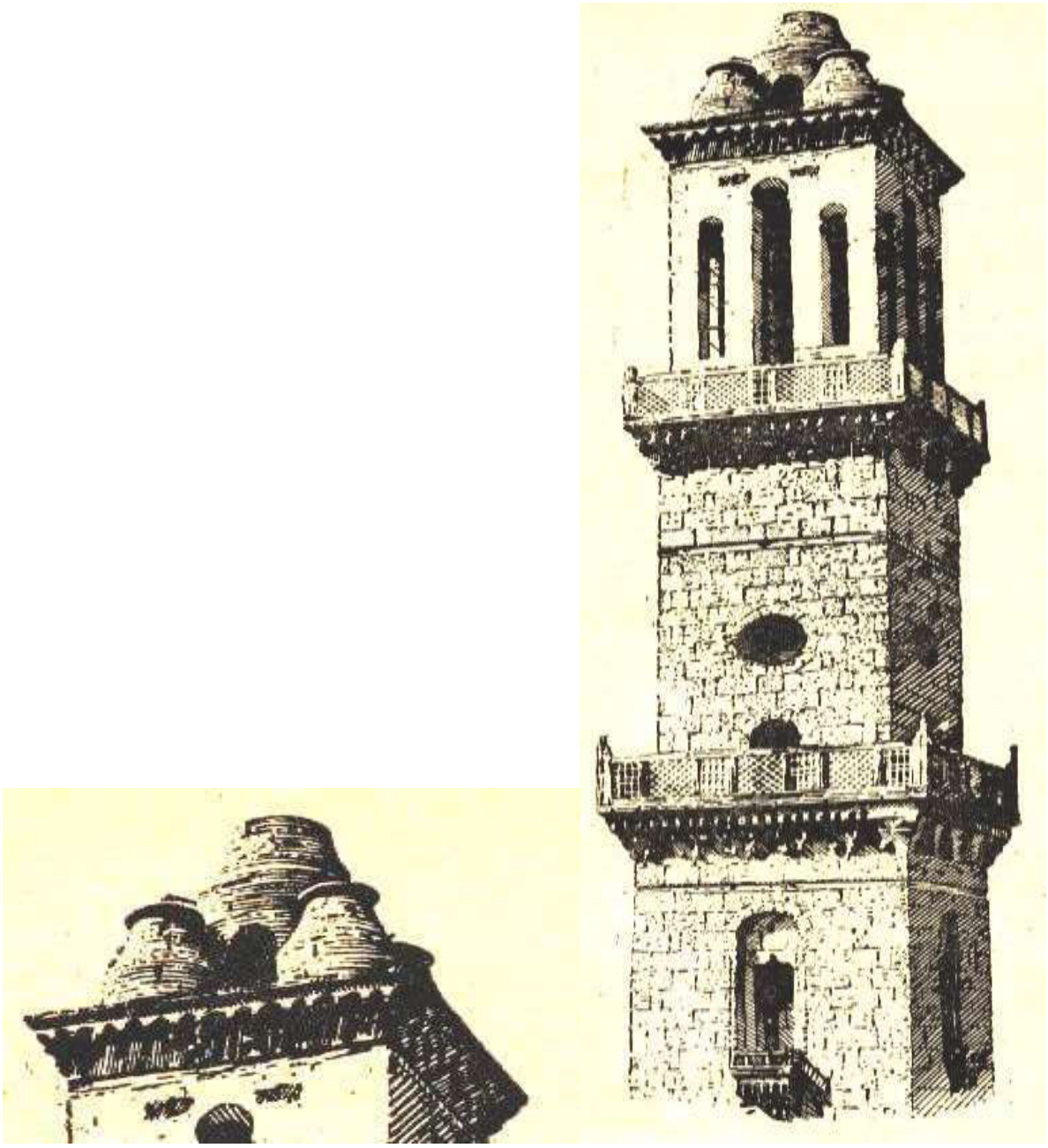

لوحة رقم 8

مئذنة مدرسة ومسجد أبو الذهب بالقاهرة وعليها خمس رؤوس منفصلة

لوحة رقم 9 ، 10

اللوحتان تمثلان شيوع نمط الصومعة رباعية الرؤوس فى منطقة توزر بتونس

لوحة رقم 11

جامع سيدى مخارج بنفطة مع تفاصيل للصومعة

لوحة رقم 12

تفاصيل للقباب الاربـعة على صومعة جامع سيدى مخارج بنفطة

لوحة رقم 13

صومعة جامع سيدى مخارج بنفطة

لوحة رقم 14جامع سيدى ابراهيم بن احمد بنفطة وتفاصيل للصومعة

لوحة رقم 15 "تفاصيل للقباب الاربعة على صومعة جامع سيدى ابراهيم بن احمد بنفطة

لوحة رقم 16 تفاصيل صومعة جامع سيدى مزهود بنفطة

لوحة رقم 17 جامع سيدى مزهود بقرية نفطة

لوحة رقم 18

جامع سـيدى عبدالله الترويس بقرية بدقاش مع تفاصيل لطريقة واسلوب البناء بمداميك الاجر.

لوحة رقم 19

تفاصيل لإمتداد كتلة الصومعة والقباب الاربعة على قمة الصومعة

لوحة رقم 20 جامع اولاد ماجد بقرية بدقاش القرن 8هـ/14م وتفاصيل لكتلة الصومعة

لوحة رقم 21 تفاصيل للرؤوس الاربعة المحمولة على حجرة الجوسق

لوحة رقم 22 تفاصيل لمنطقة انتقال الروس الاربعة لصومعة جامع اولاد ماجد

لوحة رقم 23 تفاصيل لمجموعة الاعمدة الحاملة لمنطقة انتقال رؤوس الصومعة

لوحة رقم 24 تفاصيل للقباب الاربعة التى تعلو صومعة جامع اولاد ماجد

لوحة رقم 25 تفاصيل لمنطقة انتقال القباب الاربعة بصومعة جامع اولاد ماجد ببدقاش

لوحة رقم 26

صومعة جامع توزر الكبير القرن 6هـ/12م وتفاصيل للجزء العلوى الذى كان يعلوه اربعة رؤوس

لوجة رقم 27 جامع الناعورة بمدينة توزر وتفاصيل لكتلة الصومعة

لوحة رقم 28 جامع الناعورة وتفاصيل للرؤوس الاربعة على قمة الصومعة

لوحة رقم 29 صومعة جامع سيدى عبيد الاخضر بتوزر

لوحة رقم 30 تفاصيل للقباب الاربعة على صومعة سيدى عبيد الاخضر

لوحة رقم 31

مقابر ومصلى جنائزى خططت على هيئة الصوامع راعية الرؤوس بمنطقة المزاب بالجزائر

لوحة رقم 32

مقابر ومصلى جنائزى خططت على هيئة الصوامع راعية الرؤوس بمنطقة المزاب بالجزائر

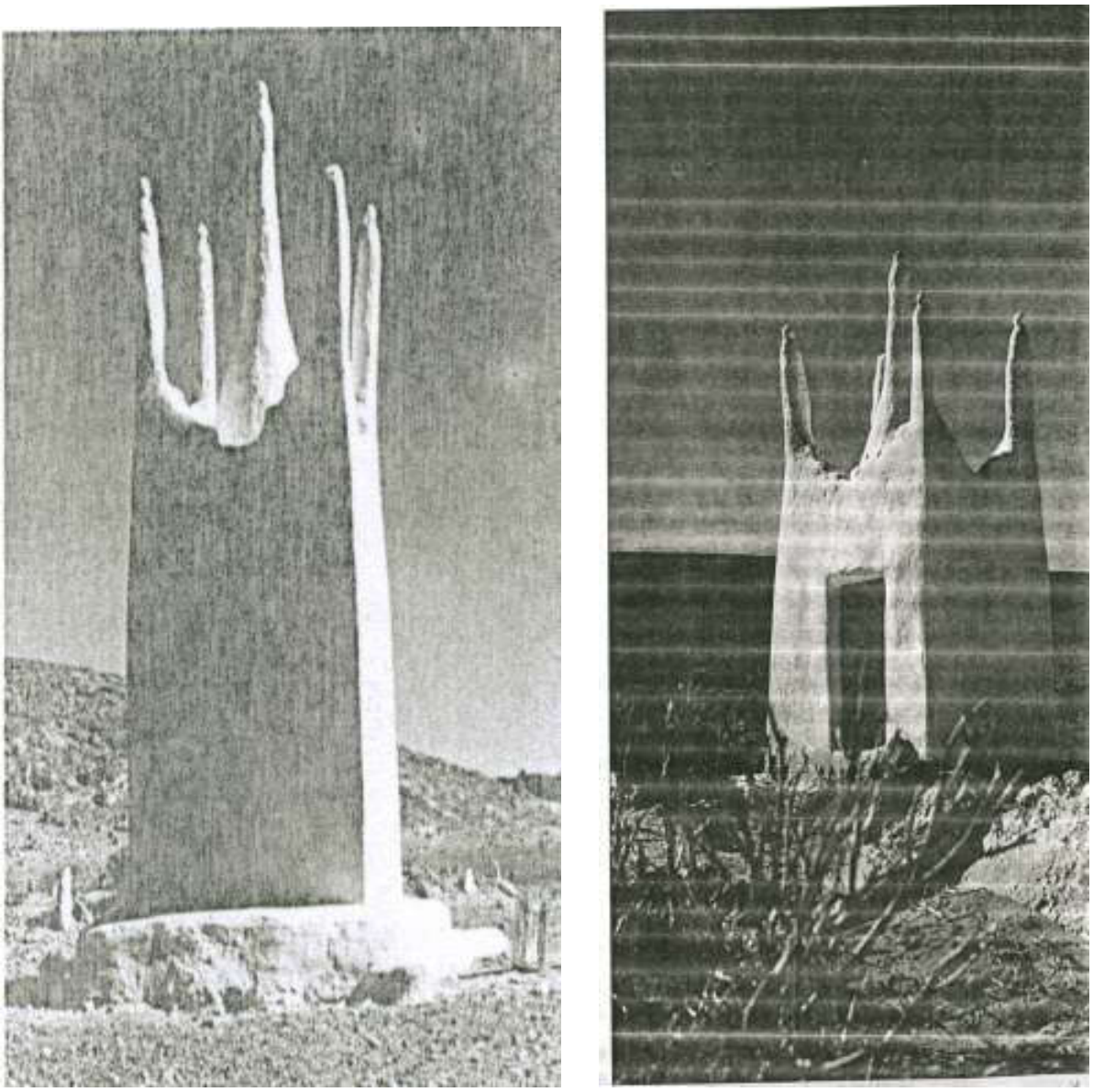

لوحة رقم 33

مقابر بمنطقة المزاب وبريان بالجزائر خططت قمتها من خمس رؤوس

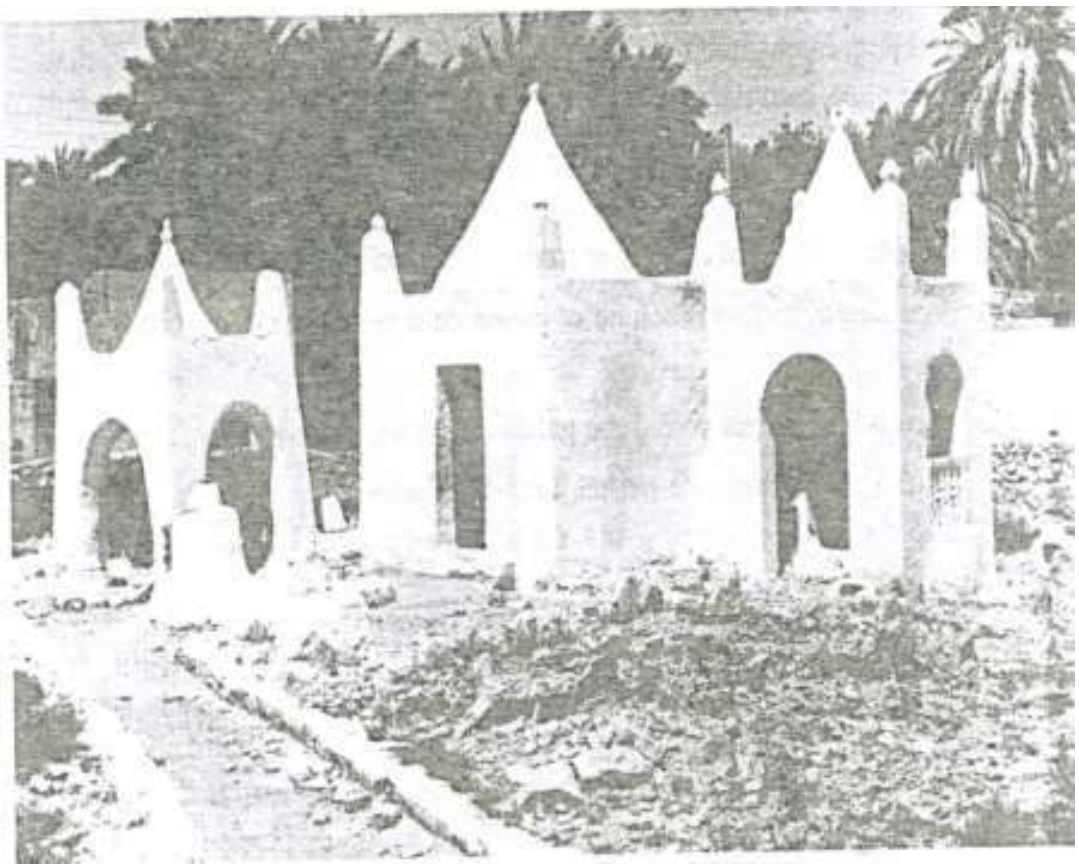

لوحة رقم 34

نماذج لمقابر بمنطقة المزاب بالجزائر خططت قمتها من خمسة رؤوس